15-02-2015

الشيخ جمال الدين سيروان

الله مع القاضي العادل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على سيدنا وحبيبنا وعظيمنا وأميرنا وشفيعنا وقرة أعيننا محمدٍ الأكرم وعلى آل بيته الأطهار وعلى صحابته الأبرار وعلى من سار على دربهم في هذه الدار، نسألك اللهم يا عزيز يا غفار، نسألك اللهم يا عزيز يا غفار، أن تغفر ذنوبنا، وأن تستر عيوبنا، وأن تقضي حوائجنا، وأن تفرج همومنا، وأن تنفس كروبنا، يا ربنا يا الله يا مجيب المضطر إذا دعاه، يا كاشف السوء عمن ابتلاه، نسألك اللهم وأنت ربنا لا رب لنا إلا أنت، ولا إله لنا سواك، سبحانك أنت مالك الملك، أنت مقدر الأقدار، أنت مسبب الأسباب، أنت مكور الليل على النهار، أنت خالق الخلق، أنت مدبر الأمر، أنت مالك الملك، نسألك اللهم وأنت الله لا إله إلا أنت سبحانك ربنا، نسألك أن تفرج هموم المسلمين، اللهم فرج هموم المسلمين اللهم فرج هموم أهلنا في الشام وأهلنا في العراق وأهلنا في اليمن وأهلنا في ليبيا اللهم فرج همومهم اللهم نفس كروبهم اللهم عليك بأعداء الإسلام شتت اللهم شملهم فرّق جمعهم أقلل عددهم اجعل بأسهم بينهم اللهم اجعل تدبيرهم تدميرهم اللهم اجعل تدبيرهم تدميرهم اللهم اجعل تدبيرهم تدميرهم اللهم عليك بهم فإنهم لا يعجزونك اللهم عليك بهم فإنهم لا يعجزونك أرنا عجائب قدرتك في هزيمتهم أرنا عجائب قدرتك في هزيمتهم وفي نصرة المستضعفين من عبادك يا أرحم الراحمين يا أكرم الأكرمين، يا رب العالمين إليك لجأنا فلا تطردنا، وبابك قرعنا فاعفُ عنا إنك أنت العفو الرحيم، اللهم اغفر لنا ما قدمنا، وما أخرنا، وما أسررنا، وما أعلنا، وما أنت أعلم به منا، إنك أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير، وصلِّ وسلم على سيدنا وحبيبنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد:

أحبتي الكرام، يا من تنشدون حبيبكم المصطفى ﷺ، تتفيؤون ظلال كلامه، وتعيشون صدق منهجه، وتأوون إلى حديثه، ذلكم أنه الصدق، لأنه هو الناطق بالحق، فلا حق إلا ما جاء به رسول الله ﷺ، فكل ما كان من حق في الدنيا إذا لم يكن موافقًا حق الرسول عليه الصلاة والسلام، فهو باطل؛ لأنه ﷺ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾. أوحى الله إليه فنطق بالحق، وتكلم بالصدق، فسُمّي الصادق الأمين، هكذا كان ﷺ، إنما أعطى الناس الحقيقة قبل أن يقول الكلام، وأعطاهم المواصفات قبل أن يدعي الحديث، لذلك قالوا عنه الصادق الأمين، وما أعظم المسلم الذي يستطيع اليوم أن يجسد الإسلام بمواصفاته، وأن يحقق الإسلام بمقاصده ومراميه، وأن يحكي الإسلام بأخلاقه وغاياته، ما أكرمك أيها المسلم وأنت تقدم نفسك للعالم أنك تابع رسول الله ﷺ، خُلقًا، ووعيًا، وإتقانًا، وعلمًا، وفهمًا، وصدقًا، إذا كنت كذلك فأنت الإسلام، كذلك الإسلام، الإسلام دين الحق جاء به رسول الله ﷺ مِن لدن ربه سبحانه وتعالى، بقراءة الوعي، بتصديق الحقيقة، بإثبات الصدق، بإثبات الواقع الإيماني الذي جاء بالنطق بالحق، وربنا عز وجل هو الذي خاطب رسوله الأعظم ﷺ، باعتبار أنه المثال: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ۝ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. وأمام ما تميد به الظروف، وأمام ما تقوم به الأحداث، وأمام ما تجري من زلازل وفتن، واضطراباتٍ تأتي على كثير من الحقائق لتغيرها، ومن الثوابت لتزلزلها، لا بد لنا أن نذكر هذا القرآن الذي يذكّر الحبيب الأعظم ﷺ بأنه الحق: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾. وحاشاه ﷺ أن يكون متبعًا لهواه، فضلًا عن أن يتبع هوى غيره، فهو ليس عنده هوى ﷺ، وقد عصمه الله سبحانه وتعالى، وعلّمه من لدنه العلم: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾. ولكنَّ الحق سبحانه وتعالى إنما يجعل الرسول عليه الصلاة والسلام الأسوة التي يُقتدى بها، فلذلك قال له: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾. هذا الخطاب إذا كان للحبيب ﷺ، فهو أجدر أن يكون لكل إنسان مؤمن أن يفهم أنه ينبغي أن يكون قائمًا بما أنزل الله، وألا يحيد عن هذه الجادة قيد أنملة، كذلكم جاء هذا الدين الحنيف، جاء هذا الحنيف لأجل أن يقيم العدل، ويحقق في هذه الأمة الإنسانية

حقيقة هذا الإسلام، جاء الإسلام لأجل أن ينبت أمة طاهرة نقية، لا لأجل أن يقضي على الكفر في الأرض، ما جاء الإسلام ليقضي على الكفر في الأرض، إنما جاء الإسلام لأجل أن يميز الخبيث من الطيب، ولأجل أن يُظهِر الحق من الباطل، ولأجل أن يقول هكذا هو محمدٌ ﷺ، جاء الإسلام لأجل أن نقول: هكذا هو المؤمن بدين الإسلام، ما جئنا أبدًا لأجل أن نسلط سِناننا على رقاب الناس نقتطفها، إنما جئنا لأجل أن نبيّن لساننا من خلال دعوة الخير التي بُعث بها نبينا محمد صلى الله وسلم وبارك عليه، كذلكم جاء الإسلام، أراد كثيرٌ أن يغيروا من هذا الدين حقيقته، وأن يصرفوا هذا الدين عن واقعه، وأن يموهوا هذا الدين عن أساسه، ولذلك وقعنا في كثير من الأزمات التي تحاصرنا في مثل هذه الأيام التي نسأل الله تعالى أن يجعلها أيام بركةٍ. لأن الله تعالى ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾. فأيامٌ مُرّةٌ فيها صعوبةٌ، فيها زلازل، فيها محن، فيها فتن، فيها كثيرٌ من الاضطرابات، ولكنها لا ينبغي أن تكون لنا إلا وقودًا حيويًا يُحيي فينا قوة إيمان، وعزيمة يقين، وصدق تصميم على أننا على حق أنزله رب العالمين، ما ينبغي لنا على الإطلاق أن تتزلزل فينا أمام هذه المحن تلك القيم الإيمانية التي سقاكم الله تعالى رحيقها، وما زلتم تذوقونها، وتقولون من خلالها لا إله إلا الله، فمن رُزِقها فقد رُزِق الحق، نسأل الله أن يحيينا عليها، وأن يميتنا عليها، وأن يبعثنا يوم القيامة عليها موحدين له، لا نعبد إلا هو سبحانه وتعالى.

نحن اليوم أمام ذلك كله، ينبغي أن يكون عندنا هذا اليقين الذي لا ننصرف عنه على الإطلاق، لأننا نرى أن هناك قنوات كثيرةً، وهزلًا خطيرًا، وادعاءات باطلةً، وألسنةً ظالمةً، وأفكارًا غاشمة، تأتي على المسلمين، والمسلمون إذا لم يكونوا واعين، لا يستطيعون أن يتحملوا هَمّ هذا الدين، لا يحمل هم هذا الدين إلا رجال صادقون، إلا رجال يستطيعون أن يحملوا معنى الثبات في قلوبهم قبل أن يحملوا معنى الثبات في أجسادهم، كذلكم كانوا، كذلكم كانوا رضي الله تعالى عنهم، حين ثبّت الرسول عليه الصلاة والسلام في أنفسهم كلمة الحق. فما كانوا لتتزلزل فيهم كلمة الحق مع رؤية الباطل بكل ما فيه من قوة، وبكل ما فيه من ضغط، وبكل ما فيه من استبداد واستعلاء، أما قالها زيد بن الدُّثنة؟ أما قالها أمام أولئك؟ قل في محمد كلمةً، كلمة واحدة قلها في محمد. وما كان له إلا أن يقول في محمد كلمةً واحدة، والله ما أحب أن أكون سالمًا في أهلي ومالي وحبيبي رسول الله ﷺ يُشاك بأدنى شوكة في قدمه، كذلكم ثباتٌ في القلب، يقينٌ في الفؤاد، استمرارٌ للهدف، رؤيةٌ واضحة لأجل الغاية، حينئذٍ يكون المؤمن محققًا لمقصده.

ولستُ أبالي حين أُقتل مسلمًا *** على أي جنبٍ كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ *** يبارِك على أوصال شلوٍ ممزّعِ

اللهم يا رب، إن كنت تعلم بأني على الحق، فإني أسألك أن تبلغ رسولك الأعظم محمدًا ﷺ ما يُصنع بي اللحظة. قالها خُبيب بن عدي رضي الله تعالى عنه، حين وقف هناك، هنا في عرفة، وقد قتلوه وصلبوه، وقبل أن يُقتل قال هذه الكلمات العذبة، وهذه الرسالة الطرية النضرة، وهذه المناجاة العطرة، بعثها إلى حبيبه الأعظم، وساق الله الريح وأوصلها إلى أُذن الحبيب ﷺ، طريةً غضّة كما قالها خبيب رضي الله عنه، فامتُعِض رسول الله ﷺ، وخصّ بهذه الرسالة تألمًا على حبيبه على خبيب، وقال: "قم يا مقداد، قم فخذ أخاك معك، وقوما لتدفنا أخاكما الذي قد صلبه أولئك الظلمة في ذلك المكان" فجاءا إليه، وشاء الله أن يجعل الطيور الصَّواف فوق رأسه تحميه من الزنابير والحشرات، إنما هي حماية رب العالمين، لأنها أكوانٌ يقودها الواحد الأحد الفرد الصمد ﴿إِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

إذن نحن اليوم مع رسولنا المصطفى ﷺ، نأتي إلى مائدته، فنتفيأ ظلالها في كل أسبوع، ونأخذ من خلالها رحيقًا يمتد معنا أسبوعًا تلو أسبوع، ونحن نستذكر هذه الحقائق التي ينثرها على عقولنا، لأجل أن تستيقظ من خلال ما جاء علينا من ظلمات، فإذا بالمصطفى ﷺ يضيء لنا الدرب، ويوضح لنا السبيل ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

الفصل الرابع في القضاء:

فالقضاء، كما يقول المصنف -يرحمه الله- الشيخ منصور علي ناصف في كتابه التاج، الله تعالى مع القاضي العادل، نعم الله تعالى مع القاضي العادل، وقد نثر الله تعالى في القرآن آيات العدل، إذ يقول لنا في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ

بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. الله يأمر بالعدل ويأمر بالإحسان، كذلك أمر الله تعالى، العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض، واليوم ضُيِّع العدل، فرأيتم المجتمعات البشرية كلها تمور مورا، وتضطرب اضطرابا، رأيتم بأن الظلم إذ فشا، رأيتم نتائجه الوخيمة في مجتمع الإنسان كله، لأن الله أمر بالعدل، فبالعدل قامت السماوات والأرض، ولذلك النبي صلى الله وسلم وبارك عليه يوم جاء، جاء بالعدل، وراح يقولها صريحةً واضحةً، قوية مجلجلة "قوموا واسمعوا، فإنه والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها" وحاشاها رضي الله تعالى عنها، ولكنه العدل الذي أراد ﷺ أن يقيمه في هذه الأرض، ولذلك لما سيكون ناس يحكمون بين الخلق، ينبغي أن يقيموا الحق، وأن يجعلوا العدل ميزانهم، والله سبحانه إذ أمر بالعدل، رأينا كيف جعل أنبياءه ومرسليه يقومون بهذا العدل، أمَا رأينا بأن الله تعالى يذكر لنا تلك القصة التي ذكرت لكم عنها سابقًا: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾. ألا تتزلزل قلوبكم وأنتم تسمعون أن قضيةً تقوم بين راعٍ وبين مزارعٍ قد وكل الله بهما رسولين عظيمين، ملكين كبيرين، والله يقول: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾. الذي استطاع أن يصل إلى العدل بأجمل صُوَرِهْ وأبدع أُسَسِه، ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾. ولكنَّ داوود عليه السلام قد بذل جهدًا وله في جهده الأجر ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. لكنَّ سيدنا داوود كان يمثل رأيًا، وكان يمثل اجتهادًا، وكان يمثل رؤيةً من الرؤى، كذلك كان داوود عليه السلام، أب عظيم، ورسول كريمًا، وقائدًا غُرًّا، وفذًّا عليه السلام، ومع ذلك فاهتدى إلى طريق، اهتدى ابنه إلى غيره، فكان اهتداء ابنه إلى الطريق الآخر أصوب من طريق أبيه عليه السلام، وذكرت لكم كيف أن الإسلام الذي أقام أرضية العدل، جعل عند الإنسان كرامة الحرية، فالحرية لا يمكن أن تنبت إلا من العدل، فلما يقوم العدل تكون حرية، ولما يسود الظلم تُغتال الحريات، لذلك علَّم مجتمع سيدنا داوود وسيدنا سليمان هاذين الإنسان البسيطين في مجتمعنا، مزارع وراع ، أنى لهما أن يقولا في قضية حقوق الإنسان، وفي قضية إقامة الحق، وفي قضية البحث عن العدل، راحا يبحثان عن العدل، داوود عليه السلام، الملك الذي أعطاه الله تعالى ذلك المُلك، آتاه الله الملك والنبوة، أعطاه الله القوة، هزم الله به جالوت، وقتل داوود جالوت، هذا النبي العظيم وهذا الرسول الكريم، يحكم بين هذين الاثنين، والاثنين كأنهما قد استقيا من خلال البيئة التي فيها نسيم الحرية، أن هناك أشياء أخرى، وثقافة عظمى، أرأيتم كيف يمكن للعدل يوم ينتشر، وللحرية كيف يكون الناس متفكرين وعقلاء، وألا يكونوا مقموعين، أرأيتم أن الظلم يقمع المواهب، أرأيتم بأن الظلم يقتل الإنسانية، لكنَّ هذه الحرية والكرامة أفاءت على هذين الرجلين بعد أن سمِعا حكم داوود عليه السلام في قضيةٍ بسيطةٍ بأن تأكل هذه الأغنام زرع هذا المزارع، فيحكم سيدنا داود بحكمٍ عادلٍ لطيف شفيفٍ، وهو أنك أنت لم ترعى هذه الأغنام رعايتك الحقَّة، وتركتها تموج في أرض الرجل فأكلت زرعه، ويبدو أن الزرع ثمنه يكافئ ثمن الغنم، فقال له: عليك وقد اعتديت أن تكون ضامنًا لما قامت به أغنامك، إذن أعطِ أغنامك لصاحب الأرض، وانتهى الموضوع. هل يحتاج هذا الأمر إلى زلزال؟ انتهى، وهذا عدل، لكن العجب أن يذهب هذان الرجلان، الراعي والمزارع إلى الولد، وهل يمكن في مجتمعنا أن يكون مثل ذلك؟ مَلِكان، نبيان، رسولان، فجاء إلى الولد: إن أباك العظيم مَلِكنا رسولنا قد حكم فينا، ونحن نريد حكمك، نريد أن نفهم منك حكمًا آخر، فما كان لسليمان عليه السلام ليعتذر عن ذلك، ويقول إن أبي قد حَكَم، وإن شيخي قد قال، أما رأيتم اليوم؟ أما رأيتم بأن عقولنا طُمِست؟ وأن أفهامنا قُيِّدت، قد قالها شيخنا، الله أكبر، شيخك قال، له عقل وأنت لك عقل، إذا كنت على عقلٍ كعقل شيخك، وتعلمت علم شيخك، فعليك أن يكون لك مثل اجتهاد شيخك موافقةً أو مجانبة، لذلك سيدنا داوود عليه السلام أفتى قضى، وسيدنا سليمان نظر في فتوى أبيه فلم يقل إنها على غير حق، ولكن قال إني أجتهد اجتهادًا آخر غير اجتهاد أبي، وما منع ذلك أن يكون الابن على غير اجتهاد أبيه، أمَا ترون أن الأمر فيه عجب؟ أين تربيتنا؟ أين المناخ الذي أنشأه القرآن فينا؟ نحن نريد أدبًا، ولكنه أدبٌ يدعو إلى الاستبداد، بئس هذا الأدب، إن أدب أسلافنا رضي الله عنهم كان أدبًا يدعو إلى حرية الفكر، ونضارة الفهم، وقوة الاجتهاد، لمالكيه، ليس هذا الأمر لمن لا يملكون ذلك، هذا الأمر لمن يملكون هذه الأسس، فلهم أن يجتهدوا، أمَا اجتهد الشافعي بذهنه، فاستطاع أن يجعل من ذهنه شافعيين، فكان شافعيُّ مصر يخالف شافعيَّ بغداد، وترك شافعيُّ مصر شافعيَّ بغداد على اجتهاده، ولم يقل إن شافعيَّ بغداد مخطئٌ في اجتهاده، بقي الشافعيان موجودين في وقت واحد، وبقيا موجودَين وجاءت الأجيال تدرس الشافعيين، والشافعي واحد، لكنه كان ذهنًا متجردًا، وعقلًا واعيًا، وفهمًا يستطيع أن يفارق بين الأحداث، ويفاصل بين الوقائع، لذلك بقيت الأجيال من بعده تدرس الشافعيين، فبعضهم يرجح المصرية، وبعضهم يرجح البغدادية، أرأيتم إلى مثل هذه الحرية؟ هكذا كانت الحرية الفكرية، أمَا كان تلاميذ أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه على مثل هذه الحرية والنقاء، والصفاء والفهم، والوعي والإدراك، أمَا كان كذلك؟ أما وافقا شيخهما أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه في شيء، وخالفه في شيء، ووافقه واحد مرة، وخالفه الثاني مرة، وهكذا على مدار ما

كانا مع شيخهما رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وكذلك القرآن يؤسس فينا، لكن هل هذا بالعبثية؟ هل لمن لا يملك هذه الوسائل؟ هل لإنسان جاهل أن يقوم بأن يحكم بين الناس؟ أم ينبغي الذي يحكم بين الناس أن يكون مالِكًا لآليات الحكم وآليات القضاء، لذلك سيدنا سليمان عليه السلام لما رأى أباه قد حكم في طريقة، حكم بطريقةٍ أخرى، فقال: أرى إن أبي قد أخذ بطريقة العدل بهذا الأمر، وهو إنصاف، ولكني أريد أن أصل إلى طريقة العدل بطريقةٍ أخرى، فأنت يا صاحب الزرع خذ غنمه فانتفع به بلبنه وصوفه، وأنت يا صاحب الغنم خذ أرضه فازرعها له حتى تنبتها كما كانت، فإذا ما نبتت كما كانت تستعيد غنمك، فـتكون قضية ما كان من ضررٍ قد عوض بهذه المنفعة، فرجع صاحب الغنم وعنده غنم، ورجع صاحب الزرع وعنده زرع، وحينئذٍ وجدنا بأن هذه القضية أو هذه الطريقة كانت قد أفضت إلى مصلحةٍ للفريقين بشكل أوسع، والقرآن ماذا قال؟ ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾. وقبلها ماذا قال؟ ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾. وكلاً ثم تأتي القضية، يا أخي والله سليمان أفهم من أبوه، لا يا سيدي داوود فهمان عليه السلام، وسيدنا سليمان فهمان عليه بالسلام، ولذلك الله تعالى ماذا قال؟ ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَ عِلْمًا﴾. ولكن طريقتان في الاجتهاد.

فإذن إنا لما سنتحدث الآن بأن الله مع القاضي العادل، بمعنى أن يكون العدل أساسًا في أي طريقة من الطرائق الوعي الذي يقيمه النبي صلى الله وسلم وبارك عليه، العدل هو أساس، سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه تقاضى مرة، سيدنا أُبيّ بن كعب وكلكم يعلم من هو أُبيّ، من هو أبي؟ الذي أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يستمع القرآن من أُبيّ، يا رسول الله أأقرأ القرآن وقد أُنزِل عليك؟ قال: "إن الله أمرني أن أستمع القرآن منك" أسمّاني ربي؟ قال: "سمّاك ربك" هذا سيدنا أُبي رضي الله تعالى عنه يدعي على سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه، يقول يا أمير المؤمنين، لقد جئت أرضي فوجدتها مسوّرة، فسألت من سوّر فقالوا لي إنه أمير المؤمنين، وهذه أرضي، قال له سيدنا عمر: يا أُبيّ، أتزعم أني أخذت أرضك؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين هذه الأرض هي أرضي. قال: نتقاضى، من تُريد يا أُبيّ؟ أترضى بزيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه؟ وزيد بن ثابت من شباب الصحابة وليس من شيوخهم، شاب من شباب الصحابة، فقال: أرضى به. فيذهب سيدنا عمر مع سيدنا أُبيّ ليتقاضيان، أمير المؤمنين يا ناس بالله استمعوا، استمعوا إلى عجب وكأننا نتحدث نحن في قصة الزير سالم، ولا في خيالات التي كان ينشئها الأُدباء خيالات، فيطرق سيدنا عمر الباب فيخرج سيدنا زيد، السلام عليك يا أمير المؤمنين، قال: جئناك يا زيد لأجل أن تحكم بيني وبين أُبيّ، قال: أرحب بك يا أمير المؤمنين. قال: ويحك يا زيد، هذا أول جوْرٍ جُرْته، أقول لك جئت أتقاضى إليك مع أُبيّ فتقول أرحب بأمير المؤمنين، مفروض الآن نحن متقاضيان هذا اسمه عمر هذا اسمه أُبيّ، بتقول أمير المؤمنين شو أمير المؤمنين هادا أول جور، فأدخلهما فأخذ وسادةً ووضعها لأمير المؤمنين، فقال: يا زيد أما كفاك الجور الأول وهذا جور ثانٍ، تجعلني أنا مع خصمي أجلس في مكان أرفع من مكانه، هذا جور ثانٍ، تفضلوا هات لنشوف إيش مشكلتك يا أُبيّ؟ قال: قال والله أنا عندي هذه الأرض وهي لي، بينتك؟ وهذا القضاء البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، فقال ما عندي بينة لكن هي الأرض أرضي، فسيدنا زيد هنا ارتبك، ونظر فيه سيدنا عمر، وهو يعني يحرك أصابعه، وينظر في سيدنا أُبيّ لعله يحلُّها، فقال لسيدنا أُبيّ في نظره: أعفي أمير المؤمنين، يعني أعفي أمير المؤمنين من إيه؟ من اليمين، لأنه الآن إذا ما عنده بينة هو مفروض أن يكون المُنكر يحلف يمينًا، فقال يا زيد والله لقد زدت لقد زدت في الجور، أرحب بأمير المؤمنين، اجلس يا أمير المؤمنين، أعفي أمير المؤمنين، لا وربِّ عمر، والله إن هذه الأرض أرضي، حلف سيدنا عمر رضي الله عنه، ماذا أصبحت الأرض؟ لمن؟ لسيدنا عمر، يقول: والله ما حلفت حتى يعلم كل مُسلمٍ بأن عمر ما خاف من الحلِف خشية أن يضيع حق. قال له إذا كان والله بطلت أحلف المسلمون من بعدي بقولوا والله أمير المؤمنين بطَّل يحلف فتضيع حقوق المسلمين، فحلف بأن الأرض له، ثم قام يعتنق سيدنا أُبيًّا رضي الله عنه، قال يا أُبيّ الأرض أرضي وقد وهبتكها، وهبتك الأرض، أرأيتم كيف يمكن أن يكون القضاء؟ كذلك القضاء، هذا قضاء الإسلام يا إخواننا، يعني سيدنا علي رضي الله عنه يومًا درعه المشهورة الذي تعلمون عنها، درع علي رضي الله تعالى عنه، قام ففقدها رضي الله تعالى عنه، أين الدرع؟ بحث عنها، فوقعت عينه على يهودي يذَّرِع بها، يا يهودي هذه درعي، قال: يا أمير المؤمنين وكيف تدعي ما ليس لك هذه درعي، قال: نتقاضى، أنتم تصوروا يا أخي في مجتمع إسلامي، وبيهديك القضية وصفّين القائمة، وسيدنا علي رضي الله تعالى عنه ضاعت دِرعه ويجدها عند اليهودي، يعني في يهودي آنئذٍ كان آمِنًا، يعيش في المجتمع الإسلامي آمنًا، ويسرق درع أمير المؤمنين، وأمير المؤمنين يدّعي عليه، ويذهب سيدنا علي مع اليهودي يتقاضيان إلى شُريح رضي الله تعالى عنه، بدنا البيّنة، صحيح؟ المُدعي سيدنا علي هات بينتك، فقال بيّنتي الحسن ابني والقنبر مولاي، فقال شُريح: يا أمير المؤمنين أما قنبر فأقبله، وأما الحسن فلا أقبله، فقال: ويحك، أمَا سمعت عمر بن الخطاب قد سمِع رسول الله ﷺ يقول: "الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة" أما ترضى أن يكون سيد شباب أهل الجنة شاهدًا؟ قال: لا أقبله يا أمير المؤمنين إنه ولدك. فقال اليهودي: الدرع درعي ما في بينة،

فلما سمِع اليهودي هذا الحكم وأن الدرع أصبحت دِرعه، ماذا فعل؟ هنا ارتجف باكيًا، وقال دينٌ يحكم على أمير المؤمنين هو الحق، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، وقاتل مع سيدنا علي في صفّين ومضى شهيدًا، هذا الإسلام يا إخوانا، الإسلام هذا الإسلام هذا القضاء الذي أراد الإسلام أن يوطده بين المسلمين، فإذن القضاء سلوا عنه اليوم، اليوم من المحامون الذين في أوروبا وفي أمريكا، من المحامي العظيم؟ والذي كان قاضيًا، من كان قاضيًا هذا يعتبر أعظم المُحامين، لأنه خبير بالقوانين وخبير بالتلاعب عليها، خبيرٌ بالقوانين وبالتلاعب عليها، هذا هو دينكم، هذا هو دينكم، نحن نقول إنه يا أخي هذا تراث ماضي ومضى، هل بربكم هذا تراث أم أنه حق؟ أليس هذا القرآن قد أنزله الله عز وجل بالخلق لإقامة الحق إلى قيام الساعة، أم أننا سنقرأه هكذا دون أن يكون عندنا من خلاله وعيٌ فيه ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾. كما أمر الله تعالى رسوله الأعظم ﷺ، لذلك أقرأ بعض الأحاديث، عن عبد الله رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ، قال: "لاَ حَسَد إلاَّ في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّه مَالًا فَسلَّطهُ عَلى هلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وآخرُ آتاهُ اللَّه الحِكْمَةَ فهُوَ يَقْضِي بِهَا، وَيُعَلِّمُهَا" رواه الشيخان والترمذي.

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: "الله مع القَاضِي ما لمْ يَجُرْ، فإذا جَارَ تَخَلَّى الله عنهُ ولْزَمَهُ الشيطانَ" رواه الترمذي.

وعن أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ، قال: "مَن ابتغى القضاءَ وسأل فيه شُفَعاءَ، وُكِلَ إلى نفسِه، ومَن أُكْرِهَ عليه أنزل اللهُ مَلَكًا يُسَدِّدُه" رواه الترمذي وأبو داوود.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: "مَن طلب قضاء المسلمين حتى ينالَه، ثم غلب عدلُهُ جَورهُ فله الجنةُ، ومن غلب جوره عدله فله النار" رواه أبو داوود بسند صالح.

إذن هذه أحاديث تلحظون بأن النبي صلى الله وسلم وبارك عليه، يوم يقول لكم بأن حسد الغِبطة لا يكون إلا في أمرين اثنين، يعني ما ترغب به النفوس من خلال الآخرين حسد غِبطة، وقلنا بأن الحسد حسدان، حسد والعياذ بالله إنما يوري بصاحبه إلى نار جهنم، وحسدٌ إنما يدفع صاحبه بأن يكون من أصحاب النعيم، أما الحسد الأول فهو الذي يتمنى فيه الحاسد زوال النعمة عن الآخر، ويكون حينئذٍ شاكًا بربه سبحانه وتعالى، ومشرِكًا به سبحانه وتعالى، وكأنه يتخيل أن الرزق رزق الناس، الرزق رزق الله، والله وزَّع رزقه على العباد، الله تعالى هو الذي رزق هذا، وهو الذي رزقك، والله تعالى قادر على ينزع من ذاك ويعطيك وعلى أن ينزع منك، ويعطي الآخر، فالله تعالى هو القادر المقتدر، وهو الوهاب سبحانه وتعالى، إذن هذا الحسد المنهي عنه والخطر، والذي هو يعتبر حالقًا للدين، ولكن الحسد الآخر هو حسد التنافس ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾. يعني من تمنى أن تكون تلك النعمة ثابتة على أخيه، ودعا الله له، وسأل الله تعالى أن يزيدهُ مما تفضل به عليه، وسأل الله تعالى أن يؤتيه مثل ما آتى أخاه، أنت رأيت إنسانًا قد آتاه الله من المال فكان عنوانًا من عناوين الخير، استشعر همَّ المؤمنين، واستشعر مصائب المسلمين، وراح يتفقد أحوالهم، وراح يرعى شؤونهم، فتمنيت لو أن الله تعالى أكرمك بما أكرمه من عطاء، لتكون مقلدًا له، ولتكون متأسيًا بما كان يقوم به، حينئذٍ فإن الله تعالى أكرمك بهذه النية "وإنما الأعمال بالنيات" فلو رزقك الله فطبّقت لكنت أنت المثال الآخر، ولو لم تُرزَق ذلك فإن الله يثيبك على نيتك التي نويتها، إذن لا حسد إلا في اثنتين هو دفع الهمة والعزيمة، لأجل أن يتنافس المؤمن مع المؤمن في الخيرات، فبذلك ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾. فلا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالًا، واذا بهذا الرجل الذي آتاه الله مالًا كان عثمانيًا، فإذا بعثمان رضي الله تعالى عنه ما كان ماله إلا للمؤمنين، يوزعه على المؤمنين كل موقعة من مواقعهم، يجهز به جيوش المسلمين، يعطي فقراءهم، يعطي مساكينهم، كذلك كان سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه، مما دعا رسولنا الأعظم ﷺ أن يدعو له الدعاء الذي تعلمونه "اللهم اغفر لعثمان ما قدّم، اللهم اغفر لعثمان ما أخّر، اللهم اغفر لعثمان ما أعلن، اللهم اغفر لعثمان ما أسر" دعا له رسول الله ﷺ هذا الدعاء الشامل التام العام لعثمان رضي الله تعالى عنه، لِما كان عليه رضي الله تعالى عنه من جودٍ، ومن كرم، ومن ترقبٍ لأحوال المسلمين، ومن سعيٍ لإزاحة ما عليهم من مظالم رضي الله تعالى عنه، فبئر الرومة كلكم يعرفه، ونحن نعرفه، وقد زرتموه في المدينة المعطرة، بئر رومة الذي اشتراه سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه من يهوديٍ، وجعله للمسلمين عامة يشربون من ماءه رضي الله تعالى عنه، فمن تمنى أن يكون عثمانيًا فحينئذٍ هذه الأمنية الكريمة التي يتمناها، سائلًا الله تعالى أن يجعل له مثل ما جعل عثمان رضي الله تعالى عنه من مالٍ حتى ينفقه في المؤمنين، فهذا حسدٌ يا نِعم الحسد، هذا حسد الغِبطة، وليس حسد إزالة النعمة، والآخر رجلٌ آتاه الله حكمة، عِلمًا، فهمًا، وعيًا يقضي، فهو يقضي بها ويعلمُها، فإذا به يتمنى أن يكون من أهل القرآن، من أهل العلم، من أهل الفقه، يتمنى أن يكون كذلك،

ليهدي الله تعالى به أُناسًا ضالين، فهل مثل هذا التمني منهيٌ عنه؟ العكس تمامًا، لأن هذا مدعاة لئن تكون طالب علم، لما تتمنى أنت أن تكون كذلك، الأمنية لا تكون ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾. مَن يعمل، من يعمل، فإذا عمل الخير نال، عمل السوء نال، فإذن من أراد أن يقوم مقام هؤلاء، إنما يقلدهم فيما قاموا به، يمضي على منوالهم، يسير على طريقتهم، يقلدهم في سعيهم، فالله تعالى إن فتح على هؤلاء فاعلم بأنه الفتاح، وأنه الغني سبحانه وتعالى، ومن أعطى ذاك يعطيه، فالله إذا أعطى أدهش، وإذا اعطى الله سبحانه وتعالى فعطاؤه غير محدود سبحانه وتعالى.

والأحاديث الأخرى اللي يقول فيها النبي ﷺ: "الله مع القاضي ما لم يجر، فإذا جار تخلى الله عنه ولزمه الشيطان، فكان قاضيَ إبليس" كان قاضيًا إبليسيًا، ولم يكن قاضيًا رحمانيًا. كذلك الحديث الذي بعده "من إبتغى القضاء وسأل فيه شفعاء وُكِل إلى نفسه ومن أكره عليه أنزل الله ملكًا يسدده" يعني الذي ابتغى القضاء بمعنى أنه أراد أن يصل للقضاء عبر الوسائط، يريد أن يصل لهذا المنصب، وهذا المنصب وما أدراك ما هذا المنصب، وماذا يفعل به أصحابهُ، وكيف يستطيعون أن يكون لهم درًّا من الخيرات التي هي في ظاهرها خيرات، وهي والعياذ بالله إنما سياطٌ من جهنم يوم القيامة، لذلك هذا الذي سأل شفعاء ليصل إلى هذا المنصب، قال: وَكله الله إلى نفسه، ومَن أُكرِه عليه، ما كان يرغب به، ولكن وُسِّد الأمر إليه، وليس لراغبٍ فيه، وأراد أن يقوم بأمر المسلمين، فإن الله سبحانه وتعالى يرسل ملكًا يسدده، ويرسل له حماية من عنده، ويهديه إلى رشده سبحانه وتعالى، كذلك الحديث الأخير: "من طلب قضاء المسلمين حتى يناله، ثم غلب عدله جوْره فله الجنة" يعني غلب عدله جوره ما يريد الجور، إنما قد يكون ومنه اجتهاد من غير قصد وقع على غير العدل، لكن ما كان يقصده، فمن غلب عدله جوره فله الجنة، ومن غلب جوره فالقصد أن يجور، والعدل جاء منه على غير قصد، القصد أنه قاضٍ ظالم، وليس قاضيًا عادلًا، فحينئذ قال النبي عليه الصلاة والسلام فله النار.

إذن نحن اليوم أمام هذه المائدة في القضاء التي سنستمر في عرضها، إذ أن هناك فصولًا تتعلق بها، في تورع في القضاء، في آداب للقضاء، فيما ينبغي أن نستوعبه إن شاء الله في دروسٍ قادماتٍ بمعيتكم.

نسأل الله تعالى أن يشرح بالإيمان صدورنا، وبالقرآن عقولنا، وأن يجعلنا ممن آبَ إليه وتاب بين يديه إنه السميع القريب المجيب.